جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة: الثانية

مادة: الادب الإسلامي

محاضرة: غرض المدح في العصر الاسلامي

مدرس المادة: م.م. زبيدة ماهر صالح

المحاضرة: التاسعة

١٤٤٦هـ ٢٠٢٥م

المديح :

لقد مر بنا توجيه الرسول ﷺ للشعراء، لتكون أشعارهم غير منافية لمبادئ الدين والأخلاق إن لم تكن مدافعة عن الدعوة واعية، لها فكل ما وافق الحق فهو حسن، ويندرج ضمن الحق كل شعر إنساني تغنّى به الشعراء بالمثل والأخلاق العليا بغض النظر عن زمن قائله أو مكانته، ونجد في الحديث الشريف ما يبين مكانة الشعر الجيد الهادف، فالشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها وتُسَلُّ به الضغائن من بينها ، والمديح أحد وسائل التعبير عن حياة البدوي، كما أنه وسيلة خيرة اذا أحسن استخدامها لترقيق النفوس وتهذيبها، وإصلاح ذات البين بين أبناء القبيلة الواحدة أو القبائل المتنافرة. فمديح الشاعر غير التكسبي يكون وسيلة جادة لرفع الضغائن والأحقاد ويدخل ضمن هذا مديح زهير بن أبي سلمى لهرم بن سنان، وتمجيده للدور الانساني الذي قام به هذا الممدوح في حقن دماء قبيلتين طال أمد تحاربهما وقتالهما .

وإعجاب الخليفة عمر بهذا الشاعر لا يتجاوز الإعجاب بدوافع القول الصادقة لديه، فزهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وهو مفضل عنده حتى في حالة أخذه العطاء لأنه خلد مآثر الخير التي قام بها هرم، وخلد دوره الانساني في محاولته السلمية المشهورة. وبذا يكون المديح اذا صدقت نوايا الشاعر المادح وسيلة لتمجيد الأخلاق العليا، والمثل القويمة التي يرتضيها المجتمع، وبذا نجد هذا الغرض مستمراً في عصر صدر الإسلام خارجاً عن نطاق المديح الشخصي، أو التكسبي الى المديح الذي يجعل من الممدوح إطاراً لقضية عامة، وصفاته توكيداً لمبادىء يدعو اليها الممدوح، ويحاول الشاعر تثبيتها واشهارها .

ويدخل في هذا الاطار كل الشعر الذي قيل في مديح الرسول، فهو ليس مديحا لشخص الرسول الله وذاته قدر ما هو مديح لمكانته ونبوته وتوكيد للرسالة السماوية التي بعث لنشرها بين الناس، ولهذا أعجب الرسول ﷺ يقول الشاعر :

فثبت الله ما أعطاك من حَسَن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

لأنه دعا له في اطار النبوة التي جاء بها الرسول الكريم أن يثبته الله على أعدائه، كما ثبت النبي عيسى ونصره على أعدائه، فالله سبحانه وتعالى هو مرسل الأنبياء، وهو مثبت أقدامهم على ما يدعون اليه من عبادة التوحيد. واذا كانت معاني الشعر في المديح قد أصابها التطور لما أضفاه عليها الإسلام من معان جديدة، فان المديح بكونه وسيلة من وسائل التعبير عن نفس الشاعر أو قبيلته حين نجح في عرض وساطته، وإثارة مشاعر المودة

والعطف في نفس الرسول الكريم، استثار عطفه علىأسرى قبيلة هوازن بعد معركة حنين بشعر رقيق يستدر عفوه ورحمته، فيذكر الرسول بأن مرضعته من بني سعد من هوازن، وأنها وأخواتها ينتظرن عفوه عن قومهن، فيعفو الرسول عن الأسرى ويحتذي المسلمون حذوه، بأن يردوا الغنائم التي غنموها في هذه المعركة الى أهلها.

إن حفظ الأشعار التي تتغنى بالخلق القويم يقوم النفس ويهذبها، ووجدنا مثل هذا التوجيه الذي يدعو إلى تربية النشئ في مقولة الخليفة عمر (): أرووا من الشعر أعفه، ومن الحديث أحسنه، ومن النسب ما تواصلون عليه وتعرفون به، فرب رحم مجهولة قد عرفت، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها. ونحن نعرف أن المديح أوسع أغراض الشعر العربي ما خلا منه عصر، وقلما خلا منه ديوان. وإذا كان هناك تغيير في هذا الغرض التقليدي في صدر الإسلام، فاننا نراه متمثلا في التوجيه العام الذي وجه إليه الشعراء بالالتزام في أشعارهم، فكان المديح جزءا من هذا الشعر الملتزم وما عاد مديحا شخصيا قدر ما هو مديح لقضية الدعوة ومديح الرسول ﷺ إعلاء لقيم الرسالة السماوية، واذا كانت كذلك فقد ظل المديح سائداً في المجتمع العربي الإسلامي انطلاقا من قول الرسول ﷺ : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

ومكارم الأخلاق التي ارتضاها العربي قبل الإسلام ظلت معظمها – مما لا يعارض مبادئ الإسلام – سائدة في المجتمع العربي مضافا اليها قيم جديدة هي مما أضفاه الدين الإسلامي على خلق العربي من سمات دينية كالتقوى، والإيمان الصادق، والعدل بين الرعية، وأداء الفرائض، وما الى ذلك من الصفات العليا التي حرص الشعراء المادحون على اضفائها على ممدوحيهم، ليكسبوهم سمات الشخصية المثلى التي تتوافر فيها صفات الخلق العربي القويم، وخلق الشخصية الملتزمة بالدين والأخلاق، ونجد هذا النفس الجديد في المديح منذ وقت مبكر من عصر صدر الإسلام حين آمن المسلمون، وقرنوا اعجابهم بالنبي محمد الله وبرسالته التي تنير لهم طريق الهدى. فالطفيل بن عمرو الدوسي يقول بعد أن هددته قريش لإسلامه معلنا ايمانه مادحا الرسول (ﷺ) بأنه رحمة للناس :

ألا أبلغ لديك بني لؤي على السنان والغضب المرد

والملاحظ هنا أن تغييراً سريعا طرأ في لغة الشاعر إذ استعمل لفظ (عبد)، وما تحمله من دلالة الذلة والهوان في عصر ما قبل الإسلام، ليطلقها على مديح الرسول لأنها حملت معاني إنسانية بعيدة عن معناها السابق، اذ لا عبودية إلا الله سبحانه وتعالى، ويستوي في ذلك البشر جميعا فمحمد عبد الله ورسوله .

ونجد هذه المعاني الجديدة كثيرة في شعر حسان بن ثابت معدداً صفات النبي ﷺ فهو خاتم الأنبياء، كرمه الله تعالى بالنبوة، وقرن اسمه باسمه حين جعل تمام إيمان المسلمين شهادة لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنه بعثه هاديا لهذه الأمة فانذر الناس من مغبة الكفر، وخوفهم النار، ورغبهم بالإيمان، وبشرهم بالجنة . وهكذا يتحول مديح الرسول بيانا لمبادئ الإسلام التي جاء بها الممدوح، وهو النبي عليه الصلاة والسلام:

أغر عليه للنبوة خاتم وضم الإله اسم النبي إلى اسمه وشق له من اسمه ليجله ني أتانا بعد يأس وفترة فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً وأنذرنا ناراً وبشر جنة

ولحسان قصيدة أخرى لم ترو في ديوانه يمدح بها الرسول ﷺ جامعا فيها الأخلاق التي وردت في أماديح شعراء ما قبل الإسلام مع القيم الإسلامية الجديدة، لا لشيء إلا لأن هذه القيم إنسانية أقرها الإسلام والمجتمع الإسلامي وبقيت مثلا عليا، فالرسول الكريم موضع ثقة يعتمد عليه في الملمات، وهو ملاذ الخائفين والمحتاجين، يحافظ على الجار إذا جاوره كريم يفيض جوده كفيض البحر. بعد هذه الصفاتالخلقية التقليدية يضيف معاني إسلامية في مديحه، فهو المصطفى الذي اختاره الله تعالى لأداء رسالة الإسلام، وهيأ له من الملائكة ميكائيل وجبريل، لينصراه في الحرب مع المشركين يقول:

يا ركن معتمد وعصمة لائذ وملاذ منتجع وجار مجاور

وسنستخدم من الشاعر كعب بن زهير أنموذجاً لشعر المديح في صدر الإسلام وقصيدته اللامية أشهر قصائد المديح النبوي، وأكثرها تأثيراً في تاريخ الأدب العربي من حيث كثرة شروحها واحتداء الشعراء حذوها في المديح النبوي.

كعب بن زهير وقصيدته في مدح الرسول (ﷺ) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، أمه امرأة من بني عبد الله بن غطفان، يقال لها كبشة بنت عمار بن عدي، وهي أم سائر أولاد زهير . وكعب من مخضرمي الجاهلية والإسلام . ويذكر اسمه إذا ذكر اسم أبيه، لأنه كان قد اخذ الشعر عنه، وكان أبوه أول أمره يمنعه عن قول الشعر مخافة أن يكون لم يستحكم شعره، فيروى له مالا خير فيه، ويبالغون في تصوير حرص زهير في أن يكون شعر ابنه كعب محكماً، فيروون أنه كان يضربه واحياناً يحبسه، أو يشغله برعي الغنم، حتى اذا فاض الشعر على لسانه، يحاول أبوه سماعه، ويقول بيتاً من الشعر ويطلب من أبنه ان يجيزه، ويكرر المحاولة اكثر من مرة، حتى اذا تأكد من جودة شعر ابنه قال له: قد أذنت لك في الشعر يابني . فكانت أول قصيدة قالها حين انتهى الى أهله بعد رضا أبيه عنه :

بعرض أبيه في المعاشر ينفق أبيت فلا أهجو الصديق ومن يبع

فكعب اذن امتداد لمدرسة زهير بن ابي سلمى . وقد ذكر ابن سلام ان الشعر في الجاهلية كان في ربيعة، أولهم المهلهل والمرقشان وسعد بن مالك وطرفة بن العبد ...ثم تحول الشعر من قيس، فمنهم النابعة الذبياني، وهم يعدون زهير بن ابي سلمى من عبد الله بن غطفان، وابنه كعبا ولبيداً، والنابغة الجعدي والحطئية والشماخ، وأخاه مزرداً .

ولما كان كعب بن زهير والحطيئة راويتي شعر زهير وآل زهير، فقد قيل أن الحطيئة قدم على كعب قائلاً : قد علمت روايتي لكم أهل البيت، وانقطاعي إليكم وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك، وتضعني موضعاً بعدك، فإن الناس لأشعاركم أروى، واليها أسرع فقال كعب :

فمن للقوافي شأنها من يحوكها اذا ما ثوى كعب وفوز جرول

أما قصة إسلامه فقد ارتبطت بإسلام أخيه بجير، وذلك أنهم ذكروا أن بجيراً وكعبا خرجا إلى رسول الله ﷺ فآثر كعب أن يتأخر عن أخيه، فيقيم في مكان بعيد عن المدينة، ويذهب اخوه بجير، فلما قدم بجير على الرسول ، وسمع منه اسلم، وبلغ ذلك كعبا فقال :

الا أبلغا عني بجيراً رواية فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

وقيل أن أبياته هذه بلغت رسول ﷺ فأهدر دمه، فكتب إليه أخوه يخبره الخبر، وقال له : أنج، وما أراك بمفلت وقيل انه أرسل إليه : ويلك أن النبي أوعدك، وقد أوعد رجالاً بمكة فقتلهم، وهو والله قاتلك، أو تأتيه وتسلم، فاستطير، ولفظته الأرض وقيل ان كعباً قدم متنكراً فأتى أبا بكر فلما صلى الرسول ﷺ الصبح أتى به، وهو متلثم بعمامته. فقال: يا رسول الله رجل يبايعك على الإسلام، وبسط يده،وحسر عن وجهه. وقال بأبي أنت وأمى يارسول الله، هذا مكان العائذ بك، انا كعب بن زهير، فآمنه الرسول ﷺ فانشده قصيدته المشهورة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وقيل أن الرسول ﷺ قد كساه بردته بعد أن انتهى من إنشاد القصيدة، وقد بنى الباحثون أحكاماً على هذا الحدث، فقيل إن إهداء البردة كان تقديراً لموهبة كعب أو موافقة الرسول الله على ما في القصيدة من تقاليد فنية لما حققته من متعة فنية، وقيل انه يمكن ان يستدل بها على ذوق الرسول ﷺ الفني في الأدب ونقده ، وهي أقوال مبالغ فيها فذوقه ، وبلاغته وأدبه نجدها في جميع أقواله الشريفة. وإنما نفهم من الرواية موقف الرسول ، وهو

القائد المحنك الذي أراد أن يعلن للناس عفوه عن كعب، ويرفع عنه ما أعلنه من هدر دمه، فإذا استمع إلى قصيدته دل سماعه على رضاه عنه وعفوه، وإذا ألقى عليه بردته أكرمه، وأعلن حمايته له . فاكساؤه البرده صلى الله عليه وسلم اشهار لهذا العفو، ولئلا يتوهم أحد من المسلمين بعد ان يخرج كعب من المسجد أن دمه ما يزال مهدوراً.

ويقال أن الأنصار تجهمت كعبا، أي لم تحسن استقباله، وغلظت عليه، لما ذكر به رسول الله ، وأن قريشا لانت وأحبّت إسلامه، فانشد قصيدته:

فلما بلغ إلى قوله:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل